

الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي

دكتور / محمد السيد غلاب

يتبوأ تاريخ العلوم فى الوقت الحاضر مكانة خاصة بالنسبة للعلوم عامة ، ولكل علم من العلوم بصفة خاصة . وقد ينفصل تاريخ العلوم انفصالا يكاد يكون تاما عن مضمون العلم نفسه بالنسبة للعلوم الفيزيائية والحوية ، ولكن مثل هذا الانفصال عسير جدا بالنسبة للعلوم الإنسانية ؛ فلانزال كثير من النظريات والآراء والاتجاهات الفكرية فى العلوم الإنسانية تعتبر امتدادا واستمرارا لنظيراتها التى أتى بها المفكرون الأقدمون . وقد تخبو بعض النظريات فى فترة وتعود للظهور فى فترة أخرى ، إما كما كانت فى ذهن القدماء أو بشكل آخر . على أنه يجب ألا يشغلنا هذا عن الاهتمام بتطور الفكر والأخذ بالأساليب الحديثة .

فدراسة تاريخ العلم وتطور الفكر فيه تلقى الضوء على أصول كثير من النظريات والاتجاهات الفكرية المعاصرة . ومن ثم كان اهتمام العلماء فى الوقت الحاضر بتاريخ علومهم وتتبع تطور أفكارهم ، وذلك بقصد تأصيل تلك النظريات والأفكار وإيجاد رابطة التسلسل التاريخى لمنطق علومهم . والعمل على تطور هذا المنطق فى كل تطور جديد له .

وقد نشطت فى الأعوام الأخيرة دراسة تطور العلوم وتاريخها ، وعقدت لذلك كثير من المؤتمرات ، كما خصصت كثير من العلوم كراسى خاصة لدراسة تطورها وتاريخها . وهناك لجنة خاصة فى الاتحاد الجغرافى الدولى خاصة بتاريخ علم الجغرافيا . وهى ترصد تطور هذا العلم خلال التاريخ من ناحية ، وفى كل قطر من الأقطار من ناحية أخرى .

وتاريخ العلم وتطوره لا ينفصل عن التطور الثقافى العام ، والظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية السائدة ، سواء كان هذا بالنسبة لحقبة تاريخية معينة ، مثل حقبة التاريخ القديم أو الوسيط أو عصر النهضة أو العصر الحديث ، أو بالنسبة لقطر من الأقطار ، يمر فى فترة ازدهار أو فى فترة ركود ، فى فترة استقرار أو فترة اضطراب . ومن ثم كانت دراسة تاريخ العلم مؤشرا هاما للنظام الاجتماعى السائد .

ودراسة تطور الفكر الجغرافى لدى علماء المسلمين فى فترة ازدهار العلوم الإسلامية تعتبر حلقة هامة فى تاريخ علم الجغرافيا وتطور أفكاره الرئيسية . ولا نريد أن نكرما قد قيل من قبل ، ولكننا نريد أن نؤكد على أن الإسلام قد دعا المسلمين إلى النظر فى السماوات والأرض ، وإلى تأمل الكون ، وظواهر الطبيعة وسقوط الأمطار ونمو الأعشاب والأشجار ،

وتعاقب الليل والنهار وخسوف القمر وكسوف الشمس وبدء الخلق وتطوره ، ودعا إلى السفر والارتحال والسياسة في الأرض وتأمل خلق الله واختلاف الألسنة . ودعا إلى التدبر والتعقل لاكتشاف أسرار المخلوقات وتعظيم الخالق المصور سبحانه .

والمسلمون وهم يأخذون بأسباب العلوم في القرون الأولى للهجرة قد بدءوا بترجمة تراث الأقدمين ، من هنود ومجوس وفرس ويونان ، ثم خرجوا من دور الترجمة إلى دور الإبداع وتركوا تراثا حافلا بالمنجزات العلمية ، والإسهامات الحقيقية في حركة الفكر العلمي عامة وواجبنا أن نتدبر هذه الثروة الضخمة ، نفروها ونحققها ثم ندرسها ، ونستخرج منها ما يفيدنا في علومنا المعاصرة ، ونؤكد على هذا حتى تكون لنا أصلتنا الإسلامية في الفكر العلمي المعاصر ، وندع ما لا يفيدنا الآن ، والذي له فائدة تاريخية فحسب .

أولا : قبل الإسلام :

عرف عرب الجاهلية مطالع النجوم ومغارها ، وحددوا منازل القمر بين النجوم بشائية وعشرين منزلا ، أطلقوا عليها منازل القمر ، وأعطوا لكل منزل منها اسما عربيا خالصا « أنسوا بالقمر لأنهم يجلسون فيه للسمر ، ويهديم السبل في سرى الليل والسفر ، ويزيل عنهم وحشة المغاسق ، وينم على المؤذى والطارق » (ابن منظور) .

واستطاع العرب التنبؤ بحالة الطقس وتحديد الفصول بمراقبة طلوع ومغيب نجوم معينة ، وعرفوا ذلك باسم الأنواء ، وهم في ذلك أوصاف مختصرة لجميع الأنواء الثمانية والعشرين ، وقد جمعها الجغرافيون في كتب الأنواء (ابن خردادبته والدينوري) .

وعرفوا كوكبي الزهرة وعطارد . كما عرفوا ما لا يقل عن ٢٥٠ نجما منها سهيل أو الشعري اليابانية .

والشعر الجاهلي حافل بأسماء الأعلام الجغرافية التي كان يصادفها الشاعر منها شعر لبيد ، وعبيد بن الأبرص ، وحسان بن ثابت . ولأخير قوله :

لَمِنَ الدَّارِ أَوْحَشَتْ بَمَعَانِ بَيْنَ أَعْلَى الْبَرْمُوكِ فَالْحُمَانِ
فَالْقَرِيَّاتِ مِنْ بَلَّاسٍ فَدَارَ يَا فَسْكَاءَ فَالْقُصُورِ الدَّوَانِي
فَقَفَا جَاسِمٍ فَأَوْدِيَةِ الصُّفْرِ مَغْنَى قَبَائِلٍ وَهَجَانِ

وربما أسهم بعض الجغرافيين العرب بنصيب في جغرافية الإغريق والرومان ، وبغير اللغة

العربية ، قبل أن تصبح لغة أدبية ، منهم إيزيدور الكركنسى ، الذى ترك لنا وصفا لطرق القوافل بين أنطاكية وحدود الهند فى كتاب المحطات البازنية . ومنهم أورانيوس وكلاوكوس . وهؤلاء جميعا عاشوا حوالى القرن الأول للميلاد ، وكانوا من سكان جراكس وهى مدينة تجارية كانت تقع عند قمة الخليج الفارسى وربما كانت المحمرة حاليا .

ثانيا : صدر الإسلام : كتب الفضائل

كانت الفتوح الاسلامية مصدرا خصباً لكثير من القصص الموضوعة عن انتشار القبائل العربية وأصولها ، والتصورات الجغرافية للعالم ، حيث يختلط الواقع بالأسطورة وتحدثنا الروايات فى ذلك العصر عن الرحلات الرائدة إلى بلاد الروم ، وخاصة مدينة القسطنطينية ، وكهف الرقيم الذى يرقد فيه أهل الكهف وهو أيضا تختلط فيها الحقائق بالإسرائيليات والأساطير .

وقد أدى ذلك إلى ظهور أدب « الفضائل » ، أى محاسن البلاد والشعوب . وقد اتخذت الفضائل صيغة أقوال مأثورة تميزت بالإيجاز ، وبمناسبتها للمقام وغلب عليها طابع السجع . وبالتدرج بدأت المثالب تأخذ مكانها إلى جانب الفضائل .

وقد حفظ لنا المسعودى أنموذجاً من الفضائل يقترن باسم الخليفة سيدنا عمر رضى الله عنه . وهو يبدأ بالطريقة الآتية :

« ذكر ذوو الدراية أن عمر بن الخطاب حين فتح الله البلاد على المسلمين من العراق والشام ومصر وغير ذلك من الأرض كتب إلى بعض حكماء ذلك العصر : إنا أناس عرب ، وقد فتح الله علينا البلاد ، ونريد أن نتبأ الأرض ونسكن الأمصار فصف لى المدن وأهويتها ومساكنها وما يؤثره التربة والأهوية فى سكانها .

وقد كلف سيدنا عمر بن الخطاب قائده سعد بن أبى وقاص بعد واقعة القادسية أن يصف له المواضع المجاورة لها . وقد حفظه لنا ياقوت . كما أن المؤرخين من عصر المهالك تركوا لنا وصف غمرو بن العاصى الرائع لمصر .

ومن أشهر أدباء الفضائل أيوب بن زيد المعروف باسم ابن القرية ، وكان بدويا أمياً انحاز إلى جانب الحجاج ثم انقلب عليه فقتله الحجاج .

وهناك دليل على معرفة الحجاج بالمصورات الجغرافية ، وربما كانت بدائية الرسم ، ولكنها

دليل على بدء معرفة الحكام العرب بالمصورات الجغرافية ، التى كانوا يسمونها صور المنطقة .
ففى حوالى عام ١٠٠ هـ = ٧١٩ م بعث الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز إلى والى
الأندلس السمع بن مالك الخولانى بأن « يخلص ما غلب عليه من أرضها وعقارها ويكتب
إليه بصفة الأندلس وأنهارها .

كما أن العصر الأموى اهتم إلى جانب المعلومات الأولية عن الأمصار الإسلامية ، بتنظيم
بريد الدولة ، وإعداد رسوم تخطيطية لها ، وتحديدتها على الطبيعة بوضع أحجار على جانبيها
لتوضيح المسافات .

وعلى الرغم من أن الجغرافيا الفلكية لم تكن قد بدأت بعد ، إلا أن الأساقفة السريان
كانوا قد بدأوا حركة ترجمة من اللاتينية والإغريقية ، قدر لها أن تتجمع وتصبح كالسيل
الجارف فى القرون التالية .

ثالثا : العصر العباسى . أ - الجغرافيا الفلكية

بانتقال الخلافة إلى العباسيين وقاعدتهم بغداد ، بدأ الاتصال الثقافى بالمصادر الفارسية
والهندية . وقد حملت سفارة هندية إلى بلاط المنصور فى عام ١٥٤ هـ = ٧٧١ رسالة فى الفلك
أطلق عليها مترجمها الفزارى ، ويعقوب بن طارق اسم كتاب السند هند . واسم الرسالة فى
الأصل « براهما سفيوطا سدانتا » . وتحتوى الرسالة على مقدمة وجيزة أرفق بها عدد من
الجداول الفلكية فى تحركات الأجرام السماوية وطلوع ومغيب البروج . وقد حسبت هذه
الحركات على أساس دورات زمنية تضم آلاف السنين ، تسمى بالدورات الكونية . وتفترض
أنه عندما خلق الله تعالى الكون جعل الشمس والأرض والقمر والكواكب على خط واحد ، ثم
بدأ كل فى مداره . وأنها جميعا ستعود على نفس الخط عند نهاية العالم .

زيج الفزارى (حوالى ١٧٠ هـ = ٧٨٦ م) متأثر بنظرية السند هند . ولكن حساب
السنين فيها معدل إلى السنين القمرية . كما بدا فيه اهتمامه بالتاريخ . وهذه أولى سمات
الجغرافيا الإسلامية ، ربط الجغرافيا بالتاريخ . واشترك مع من شاء الله فى وضع أول أطرلاب
عربى . ويعاصره يعقوب بن طارق الذى ألف كتاب « تركيب الفلك » حوالى ١٦١ هـ =
٧٧٧ - ٧٧٨ م .

أخذ العرب عن هذه النظرية حساب خط الزوال أو خط منتصف النهار . والنقطة التى

يتقاطع فيها خط الاستواء مع خط منتصف النهار تسمى عند العرب « قبة الأرض » . وهى على أبعاد متساوية من الشرق والغرب والشمال والجنوب ، ومنها كان بدء حساب خطوط الطول الجغرافية . وكان يظن أنها تمر عند مدينة أوجين بالهند الوسطى ، ومن ثم تسميتها بنقطة الأرين .

ومن التراث الفارسى ما تركه أبو معشر البلخى (توفى ٢٧٢ هـ - ٨٨٦ م) ، وكان أبو معشر وهو من خراسان قد أقام بمكتبة أحد الأثرياء وتعلم فيها علم النجوم . وترك زيجاً . وهو مجلد كبير ألفه على مذهب الفرس ، وقد أجمع العلماء فى رأيه على أن الأدوار الكونية أوسنى فارس فيه هى أصح الأدوار .

غير أن علم الفلك عند المسلمين قد تأثر تأثراً حقيقياً بالتراث اليونانى . وقد بدأ نقل هذا التراث فى عهد هارون الرشيد (١٧٠ هـ = ٧٨٦ - ١٩٣ = ٨٠٩ م) وابنه المأمون (١٩٨ هـ = ٨١٣ - ٢١٨ هـ = ٨٢٣ م) . حيث أصبحت بغداد مركزاً لحركة ترجمة ضخمة .

وعنى المسلمون بترجمة الأثرين الكبيرين اللذين تركهما الجغرافى المصرى بطليموس القلوزى ، وكان بطليموس يعمل فى جامعة الإسكندرية ، وأخرج لنا رسالة فى الفلك تعرف باسم الجامع الكبير أو المجسطى ، وكتاباً آخر بعنوان المدخل إلى الجغرافيا^(١) . وقد ظل أثر هذين الكتابين فى الفلك والجغرافيا باقياً ومستمرًا فى التراث الجغرافى الإسلامى كله .

تعدى الفلكيون والجغرافيون المسلمون مرحلة الترجمة والاستيعاب إلى مرحلة التطبيق العلمى لنظريات الإغريق ، فأعادوا تجربة إيراتوستين فى قياس طول الدرجة العرضية ، وتقدير طول محيط الكرة الأرضية ، وضبطوا دوائر العرض وخطوط الطول ، وعينوا مواقع عديدة من النقاط الرئيسية فى العالم ، وكان ذلك غير تطبيق للجداول الفلكية . إذ تمكنوا من رسم شبكة خطوط الطول والعرض وهى الأساس الأول للكارتوجرافيا (علم رسم الخرائط) .

ومن أول المصنفات العربية فى الفلك ما تركه أحمد بن محمد بن كثير الفرغانى (٢٤٧ هـ = ٨٦١ م) بعنوان كتاب الحركات السهاوية وجوامع علم النجوم . وهو أحد مصادر الزيج المأمونى المشهور .

ويؤكد المسعودى أن الأرض قد صورت على أساس شبكة خطوط الطول ودوائر العرض البطليموسية فى عصر المأمون . « ورأيت هذه الأقاليم مصورة فى غير كتاب بأنواع الأصباغ ،

وأحسن ما رأيت من ذلك في كتاب جغرافيا مارينوس وتفسير جغرافيا قطع الأرض ، وفي الصورة المأمونية التي عملت للمأمون ، واجتمع على صنعتها عدد من حكماء أهل عصره صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك ، وهى أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرهما .

ويعتبر كتاب الخوارزمي في الجغرافيا فاتحة عهد جديد في الجغرافيا ، وقد أساء صاحبه صورة الأرض وقد تم تأليفه عقب وفاة المأمون ما بين ٢٢١ - ٢٣٢ هـ = ٨٣٦ - ٨٤٧ م. وتوجد منه نسخة واحدة فقط بمكتبة استراسبورج وترجع إلى ما بعد قرنين من تأليف الكتاب .

والخوارزمي من أعظم علماء الرياضة المسلمين . وقد اقترن اسمه بعلم الجبر واللوغاريتم الذى ابتدعه . وكان من فلكيي المأمون ، وثيق الصلة « بدار الحكمة » ومن ثم تغلب الرياضة والفلك على كتابته ، وكتابته في الجغرافيا على هيئة زيج أى جداول فلكية ، تبين المواقع الجغرافية للأماكن الكبرى التى يصل عددها إلى خمسمائة وسبعة وثلاثين موضعا . وهى موزعة على الأقاليم المختلفة بحسب الابتعاد التدريجي من خط الزوال الابتدائي الذى يمر - كما رأى بطليموس - بجزر السعادة (الخالدات) في أقصى الغرب من إفريقيا . ويتلو جدول المدن جدول الجبال وعددها مائتان وتسعون ، ثم يلي ذلك وصف البحار فالجزر . وأخيرا يأتى أطول الأقسام جميعا وهو وصف أنهار كل إقليم .

وأخذ الخوارزمي عن الإغريق تقسيمهم العالم إلى الأقاليم السبعة حسب درجات العرض . وقد ظل هذا التأثير للجغرافى الإغريقى بطليموس مستمرا في مؤلفات الجغرافيين المسلمين من بعد (بل إن لفظة إقليم هى تعريب Klima اليونانية) . وحيث إن هذا التقسيم النطاقي إنما هو تقسيم مناخى فقط ، فقد انتقلت الكلمة اليونانية إلى اللغات الأوروبية ، وأصبح معناها « المناخ » . والغريب أن الجغرافية الحديثة الآن عادت في دراسة الجغرافيا الإقليمية إلى التراث الإغريقى - الإسلامى ، أى إلى النطاقات أو الأقاليم بالمفهوم الإغريقى الإسلامى ، وتسمى بالجغرافيا النطاقية .

ويبدو أن رسالة « صورة الأرض » لم تكن سوى شرح لخريطة رسمها الخوارزمي على طريقة بطليموس ، ولكنها فقدت .

وتعتبر هذه الرسالة أقدم أثر في الجغرافيا العربية يتسم بالأصالة والابتكار . وعاصر الخوارزمي في القرن الثالث الهجرى فيلسوف العرب الشهير يعقوب الكندى

(توفي عام ٢٦٠ هـ = ٨٧٤ م) . وهو صاحب واحدة من أولى ترجمات العرب الجغرافية بطليموس . ولم يصلنا من كتابه « رسم المعمور من الأرض » شئ ، إلا عن طريق المسعودى ، وللكندى نظرية في المد والجزر ، اعتمد فيها على الملاحظة والتجربة العملية . وربما كان أتم وصف للأرض ، والبحار مأخوذا من الجغرافية اليونانية ، ما تركه البتاني الفلكى في القرن الثالث الهجرى . وقد أمضى البتاني حياته يرصد النجوم بمرصد الرقة وكانت له ملاحظات جيدة عن الكسوف . وقد عمل في الرصد من عام ٢٦٤ - ٣٠٦ هـ = ٨٧٧ - ٩١٨ م) .

ب - الجغرافيا الوصفية والرحلات :

إذا كان القرنان الثانى والثالث الهجريان قد شهدا ظهور الجغرافيا الفلكية عند المسلمين ، فإن القرن الرابع قد شهد تشكل الجغرافيا الوصفية كما شهد عصرا من الرحلات يقارن بحق بعصر الكشوف الجغرافية المعروف لدى الغربيين . ولم تظهر الجغرافيا الوصفية فجأة ، ولكنها تحسست طريقها بشئ من الحذر منذ منتصف القرن الثالث . واعتمدت هى أيضا على تقسيم بطليموس للأرض إلى أقاليم على شكل نطاقات عرضية ، كما أخذت عن الإغريق أيضا كثيرا من أسماء المواضع والأماكن . ولكنها تحررت بعد من تحديد هذه الأقاليم بخطوط عرض معينة ، وصححت كثيرا من مفاهيمها على ضوء الرحلات العديدة التى قام بها الرحالة العرب ، ولاسيما فى قارة إفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى .

وتنقسم كتب الجغرافيا الوصفية لدى المسلمين بتعبير المسالك والممالك ، وهذا التعبير يرسم منهاجا وهدفا للجغرافية ، فالمنهج يعتمد على الخريطة وتتبع الطرق والمسالك ، حيث إن هذا أمر لازم لدولة مترامية الأطراف تحتاج لأن ترتبط أجزاؤها بعضها ببعض ارتباطا قويا . وحيث يحتل ديوان البريد مقاما ملحوظا بين دواوين الدولة . وأما الممالك فيقصد بها الأقاليم الجغرافية الكبرى . فكأنما الجغرافيا الإسلامية فرقت بين الإقليم المناخى النطاقى ، وهذا ما أسمته بالإقليم (نقلا عن الإغريق) ، وبين الإقليم الجغرافى الكبير ، أو الإقليم الجغرافى الثقافى وهذا ما أسمته بالأقطار أو الممالك .

ويعتبر كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبه أول مصنف فى الجغرافيا الوصفية فى المدرسة الجغرافية الإسلامية . وابن خرداذبه هو أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه ،

فارسي الأصل ، شغل وظيفة صاحب البريد بنواحي الجبال بإيران . ويرى دى غويه أن المسودة الأولى لكتابه ترجع إلى حوالى عام ٢٣٢ هـ = ٨٤٦ م . أما الثانية فلا تتجاوز بحال عام ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م .

ويهتم ابن خرداذبه بصفة خاصة بوصف « المسالك » أى الطرق . بل إنه أسهب في وصف الطرق البحرية إلى الهند والصين ، ووصف الطرق المؤدية من بغداد إلى وسط آسيا وإلى بيزنطة ، وإلى الأندلس . وأسهب في وصف طرق التجارة بين أوروبا والشرق ، عبر أنطاكية من ناحية ، ومصر من ناحية أخرى وهو في غضون ذلك يتحدث عن المحاصيل المختلفة ، وأنواع النبات والحيوان ، مثل الكافور والخزيت ، ويتحدث عن مذاهب الصينيين مثال البوذية وتجار الروس (الصقالبة) .

وتظهر طريقة الاستقصاء في جمع المادة الجغرافية من مقدمة الجغرافى والمؤرخ أبى العباس أحمد بن يعقوب اليعقوبى ، لكتابه « البلدان » . إذ يقول « إننى عنيت في عنفوان شبابى ... بعلم أخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد ، لأننى سافرت حديث السن ، واتصلت أسفارى ، ودام تغربى ، فكنت كلما لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ، فإذا ذكر لى محل داره وموضع قراره سألته عن بلده .. وزرعه ما هو وساكنيه من هم من عرب أو عجم » ... ودياناتهم ومقالاتهم ... » .

ولكى نفهم ما يقصده الجغرافيون المسلمون بالممالك أو البلدان نورد خطة كتاب البلدان هذا . إذ هو يتحدث أولا عن بغداد وسر من رأى لأنها « مدينتنا الملك ودار الخلافة » . ثم عن إيران وتركستان وأفغانستان ، ثم عن غربى العراق وغربى وجنوبى الجزيرة العربية . ثم العراق الجنوبى والشرقى وشرقى شبه الجزيرة العربية والهند والصين ، أما الرابع فبيزنطة ومصر والنوبة وشمال إفريقيا .

ومن أنماط الكتب الجغرافية التى ظهرت في هذا العصر ، كتاب فتوح البلدان للبلاذرى ، الذى يعتبر بحق قطعة ممتازة في الجغرافيا التاريخية ، وهو ذو قيمة كبرى في التاريخ الإسلامى - وكتابان عن تاريخ مكة ، أحدهما للأزرقي (المتوفى عام ٢٤٤ هـ = ٨٥٨ م) والآخر للفاكهى (المتوفى حوالى ٢٧٢ هـ = ٨٨٥ م) . وينتسب لنفس النمط كتاب تاريخ بغداد لأحمد بن أبى طاهر طيفور (توفى عام ٢٨٠ هـ = ٨٩٣ م) ، وإن كانت ضئيلة الحظ من الجغرافيا ، وكتاب تاريخ دمشق لابن عساكر (توفى ٥٧١ هـ = ١١٧٦ م) .

ويعتبر صفة جزيرة العرب للهمداني من أعظم ما أنتجه العرب قيمةً في الجغرافيا ، ولا يعرف عن الهمداني إلا أنه ولد في صنعاء ، ونشأ بها ، وزار مكة ، وتوفي عام ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ بسجن صنعاء . والجزء الأساسي من كتابه ينقسم إلى خمسة أبواب رئيسية ، في وصف تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن ، وكان الهمداني على علم تام بتاريخ بلاده القديم ، وبجغرافية بطليموس ، وجهود الجغرافيين اللغويين .

ويعتبر القرن الرابع الهجري عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، وكان أيضا عصر ازدهار الجغرافيا الإسلامية . إذ بلغت فيه الجغرافية - مثل بقية العلوم أوج ازدهارها . حتى إنه ليسمى العصر الكلاسيكي للجغرافيا الإسلامية ، تلك التي بدأت بالفلك ، ثم تشعبت إلى الرحلات وأخيرا بالجغرافيا الوصفية . وكان الفلك هو أساس الكارتوجرافيا أو علم الخرائط ، كما كانت الرحلات أساس الجغرافيا الوصفية . وإذا كانت الجغرافيا الإغريقية قد توجت بخريطة بطليموس ، فإن الجغرافية الإسلامية أيضا قد توجت بخريطة الإدريسي . وإذا كان قد ظهر في الأدب الجغرافي اليوناني والروماني لمحات عن أثر طبيعة السطح أو خصب التربة في السكان ، فقد انتهى الأدب الجغرافي الإسلامي بقمة فذة في التنظير الجغرافي الاجتماعي ، ممثلة في ابن خلدون . وأخيرا فإذا كان للثقافة اليونانية أن تشيد بعالم فذ لاحظ ظواهر الطبيعة وفسرها تفسيرا أقرب إلى عقولنا اليوم ، فإن الجغرافيا الإسلامية لها أن تشيد بعالم فذ آخر هو البيروني . بل وبمجموعة علماء مجهولي الأسماء هم إخوان الصفا . وإن الجغرافي الحديث لا يشعر بأنه يقرأ لكتاب كتبوا منذ عشرة قرون إذ هم يكادون يتحدثون لغة اليوم : دقة تعبير ، وحسن استقراء ، وشمول فكرة .

ويحتل المسعودي مكانة مرموقة بين جغرافيي القرن الرابع الهجري . وهو عربي صرف ، يرتفع نسبه إلى الصحابي عبد الله بن مسعود . وقد ولد على ما يبدو في بغداد في بداية هذا القرن ، وأحاط - شأن المثقفين في عصره - بالتراث الأدبي الإسلامي ، غير أنه مال للجغرافيا عملا وعلمًا ، فكان واسع الرحلات ، بعيد الأسفار . زار جميع البلدان من الهند إلى المحيط الأطلنطي ومن البحر الأحمر حتى بحر قزوين . وربما زار الصين وأرخبيل الملايو ..

فغربت حتى لم أجد ذكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا وللمسعودي مؤلفات تاريخية وجغرافية عديدة . أشهرها مروج الذهب ومعادن الجوهر الذي ترجم إلى الفرنسية وافتتن به المؤرخ الفرنسي إرنست رينان ، وقد أعاد المسعودي تنقيح كتابه

هذا مرتين ، مرة عام ٣٣٦ هـ = ٩٤٧ م وأخرى عام ٣٤٥ هـ = ٩٥٦ ، وفي هذا الكتاب فصول جغرافية مثل البحار والأنهار وقبائل العرب والأكراد والترك والبُلغار ، وحركة هجرة القبائل ، وروايته عن قبائل الروس وغيرهم من الصُقلب . أما مؤلفه الأصغر والأقل شهرة فهو « كتاب التنبيه والإشراف » وقد تم تأليفه قبل عام واحد من وفاته . وفيه يلخص النظريات السائدة في المناخ ، وأن الشمس إذا كان مسيرها في الميل الشمالي عن معدل النهار حمى الهواء في ناحية الشمال وبرد الهواء الجنوبي ، ويحتاج إلى موضع أصغر ويتسع الهواء الشمالي ويحتاج إلى موضع أوسع ، إذ لا فراغ في العالم فالواجب أن تكون أكثر رياح الصيف عند من هو في ناحية الشمال شمالية ؛ لأن الهواء من عندهم يتحرك إلى ناحية الجنوب ، إذ ليس الريح شيئا غير حركة الهواء وتوجهه . وكذلك يجب أن تكون أكثر رياح الشتاء جنوبية ؛ لتحرك الهواء إلى ناحية الشمال لمسير الشمس في الشتاء في الميل الجنوبي . كما يتحدث عن أثر المناخ في صفات الأجسام وطبائع الناس .

وأما أهل الربع الشمالي وهم الذين بعدت الشمس عن سمتهم من الواغليين في الشمال كالصقالبة والإفرنجية ومن جاورهم من الأمم فإن سلطان الشمس ضعف عندهم لبعدهم عنها ، فغلب على نواحيهم البرد ، وتبلدت أفهامهم ، وثقلت ألسنتهم ، وابتضت ألوانهم ، حتى أفرطت فخرجت من البياض إلى الزرقة ، وركت جلودهم وغلظت لحمهم وازرقت أعينهم أيضا ، فلم تخرج من طبع ألوانهم وسببت شعورهم فصارت صهبا لغلبة البخار الرطب ، ولم يكن في مذاهبهم متانة ، وذلك لطباع البرد وعدم الحرارة ومن كان منهم أوغل في الشمال فالغالب عليه الغباوة والجفاء والبهائية ، وتزايد ذلك فيهم في الأبعد فالأبعد إلى الشمال .

ويحتل ابن فضلان مكانا هاما بين الرحالة المسلمين ، لأنه طرق أبواب عالم بربرى مجهول ، في ظروف مناخية قاسية ، إذ كان السفر إلى حوض الفولجا وبلاد الترك والبُلغار يعتبر مخاطرة جسيمة ، فهي بلاد شديدة البرد ، تحبب فيها - في ذلك الحين - قبائل متبربرة ، لا تعرف أمنا ولا نظاما . وتحتوى رحلة ابن فضلان على مادة اتنوغرافية قيمة ، اهتم بها الكتاب الغربيون بوصفها أحد المصادر النادرة الأصلية عن رحلات أجدادهم من البُلغار والروس والخزر . وقد بدأت هذه الرحلة ما بين صفر عام ٣٠٩ هـ (يونيو ٩٢١) ولكننا لا نعرف متى انتهت . وقد نشرت هذه الرحلة وطبعت طبعة حديثة .

ويحتفظ ياقوت بشذرات عديدة من رحلة طريفة قام بها رحالة أحاط به وبصحة رحلته كثير من الربب والشكوك وقتاً ما ، هو أبو دلف الينبعي الخزرجي . وكان أبو دلف شاعرا مداحا ، التحق ببلاد نصر الثاني بن أحمد الساماني (٣٠١ - ٣٣١ هـ = ٩١٤ - ٩٤٣ م) . وقد انتهز أبو دلف فرصة وصول سفارة صينية إلى بخارى ، فاصطحبها وهي عائدة إلى بلادها . ويبدو أن أبا دلف كتب ذكرياته عن رحلته بعد عودته من الذاكرة ، وخلط بها ما سمع من قصص وأساطير .

وغرب الرحالة العرب ووصلوا أوروبا ليس من الشرق فقط ، بل من الغرب أيضا . وقد حفظ لنا البكري الجغرافي الأندلسي والقزويني كثيرا من مشاهدات الرحالة إبراهيم بن يعقوب الإسرائيلي الطرطوشي وكان عالما أندلسيا يهوديا اشتغل بتجارة الرقيق ، وأخذته رحلاته التجارية إلى جنوب ألمانيا في القرن الرابع الهجري (٩٦٥ م) . وقابل الإمبراطور الألماني أوتوني مجدبرج ، وحفظ لنا معلومات واسعة عن إمارات الصقالبة في أوروبا في ذلك العصر ، ويحدثنا عن أربعة منها هي بلغاريا وبولندا والتشك وإمارة ناكون الأبدوريتي ، كما يورد تفاصيل وافية عن بعض المدن الساحلية أو القريبة من الساحل بفرنسا وهولندا وألمانيا .

أما نحو الجنوب ، فقد بعث القائد الفاطمي جوهر الصقلي ابن سليم الأسواني في مهمة دبلوماسية إلى ملك النوبة ، فوضع كتابا بعنوان « كتاب أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » ، وفيه وصف دقيق لكل النواحي التي رآها ولسكانها ، ولقد حفظت لنا شذرات منه لدى المقرئزي وابن إياس ، ويوشك هذا الوصف أن يكون الوصف الوحيد في أدب العصور الوسطى الذي يبين لنا مدى معرفة العرب بالمجرى الأعلى للنيل .

وقد ظلت الرحلة والخريطة ملازمين لكتب المسالك والممالك ، فأبو زيد أحمد بن سهل البلخي ، تلميذ الكندي ، اهتم كأستاذه بالفلك ، ثم ارتحل من بلخ إلى بغداد ، ثم أدى فريضة الحج ، وعاد ليرسم مجموعة من الخرائط ، ويعلق عليها في رسالة أسماها « صور الأقاليم » وذلك حوالى عام ٣٠٨ - ٣٠٩ هـ = ٩٢٠ - ٩٢١ م .

أما معاصره الإصطخرى ، أو أبو إسحق الفارسي الإصطخرى ، فقد نشأ في إيران الوسطى وسافر كثيراً فزار بلاد ما وراء النهر وجزيرة العرب والشام ومصر ، وأصدر كتابه المسالك والممالك حوالى ٣١٨ - ٣٢١ هـ = ٩٣٠ - ٩٣٣ م . واقتصر الإصطخرى مثل غيره من الجغرافيين المسلمين على وصف بلاد الإسلام ، مقسما إياها إلى عشرين إقليما جغرافيا ،

وليس إلى نطاقات عرضية ، وكل قسم عنه بالمملكة ، ويورد الإصطخرى في كل قطر معلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ، ويروى تفاصيل متفرقة عن المحاصلات والتجارة والصناعة وعن الشعوب والأجناس . ويعطى عناية خاصة للأقطار التي زارها .

وثالث مؤلفي المسالك والممالك هو ابن حوقل ، الذي كان يعاصر الإصطخرى ويصغره سنا . وقد احترف التجارة فحملته أسفاره غربا إلى شمال إفريقيا والأندلس ، وزار إيطاليا وعرف عن كتب إيران وجزءا من الهند . وقد اقتصر ابن حوقل على دار الإسلام « وقد فصلت إقليميا وإقليميا وصقعا وصقعا وكورة وكورة » إلا أنه كان يتجاوز ذلك أحيانا ويخرج عن نطاق العالم الإسلامي .

ويتحدث ابن حوقل في مقدمته عن منهجه فيستخدم تعبير «صورت» أو أعقبت ذلك بصورة العراق ثم صورت بلاد السند .. ثم صورت الجبال وأعمالها .. مما يدل على أن ابن حوقل اعتمد اعتادا كاملا على الخرائط ، وهذا تقليد اتبعته المدرسة الجغرافية الإسلامية ، في رسم أطلس الإسلام ، ويبدأ هذا الأطلس عادة بخارطة العالم المستديرة ، ثم خرائط جزيرة العرب وبحر فارس والمغرب ومصر والشام وبحر الروم ، ثم أربع عشرة خريطة تمثل الأجزاء الوسطى والشرقية للعالم الإسلامي (الجزيرة والعراق وخوزستان وفارس وكرمان والسند وأرمينيا ومعها إيران وأذربيجان والجبال وكيلان وطبرستان وبحر الخزر وصحراء فارس وسجستان وخراسان وما وراء النهر) .

وكان المتن الذي يصف هذه الخرائط يسير على نهج صارم ، فيبدأ بكل قطر بالكلام عن المدن والأنهار فالجبال والسكان . ويعقب ذلك وصف طرق المواصلات .

أما المقدسى فهو آخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية . أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة . وقد ولد المقدسى في عام ٣٣٥ هـ = ٩٤٦ - ٩٤٧ م . وكان مولعا بالأسفار ، وربما زار معظم العالم الإسلامي فيما عدا السند والأندلس ، ولاتى في أسفاره هذه كثيرا من العنت ، ولكنه انتهى وهو في سن الأربعين من تأليف كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » (٣٧٥ هـ = ٩٨٥ - ٩٨٦ م) . رفع مسودته الأولى إلى آل سامان والثانية إلى الفاطميين بمصر . ويبدو من مقدمة كتابه أنه اطلع على ما ألف سابقوه ، ونظر إليه نظرة فاحصة ناقدة . كما أنه لم يسطر شيئا مما دونوه ، لنلا يخس الناس حقوقهم ولم يسرق من تصانيفهم ..

ويقول عن نفسه إنه لا يعرف فضل كتابه إلا من نظر في كتبهم أودوخ البلدان . غير أنه لم يذكر إلا مملكة الإسلام .. ولم يتكلف ممالك الكفار لأنه لم يدخلها ولم ير فائدة من ذكرها ، ولكنه ذكر مواضع المسلمين منها .

وفي هذا العصر تظهر الجغرافيا بوصفها أحد العلوم الفلسفية في رسائل « إخوان الصفاء وخلان الوفاء » . وهى موسوعة فريدة وضعتها جماعة من العلماء والمفكرين ، لم يذكروا أسماءهم ، فى بداية النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وهى تتكون من إحدى وخمسين رسالة ، تتناول الرياضة والمنطق والميتافيزيقا وعلم النفس ، والتصوف والتنجيم والسحر . وقد أفردت للجغرافيا الرسالة الخامسة فى العلوم التعليمية فى الجغرافيا أى صورة الأرض والأقاليم .. غير أن المعلومات الجغرافية الأخرى متناثرة فى الرسائل ، وقد أتى أصحاب هذه الرسائل بآراء طريفة فى مجال الجغرافيا الطبيعية الميتورولوجيا ، فهم قد لاحظوا أن ارتفاع حرارة الغلاف الجوى نتيجة لانعكاس أشعة الشمس على سطح الأرض . كما لاحظوا التغير التدريجى الذى يطرأ على موضع كل من الياابس والماء . وقد تجاوزوا عصرهم بمراحل عندما قالوا إن السهول مع مرور الزمن تصبح بحارا ، وتتحول البحار إلى سهول وجبال . وهذا ما أثبتته البيرونى فى القرن التالى ..

القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى)

يمتاز هذا القرن بتألق عالم مسلم جليل ، هو البيرونى ، وظهور جغرافى كبير فى الأندلس هو البكرى ، وجغرافى وكارتوجرافى فى صقلية هو الإدريسى ، ولكل من هؤلاء الأعلام طابعه الخاص ، وكل منهم أثرى الجغرافيا والكارتوجرافيا ليس لدى المسلمين فحسب ، بل لدى المفكرين عامة ، إذ لم يقتصر أثرهم على بنى ملتهم فقط ، بل شملت البشرية جمعاء . فهم معالم مضيئة فى طريق العلم .

ولد البيرونى فى الثانى من ذى الحجة عام ٣٦٢ هـ = ٤ سبتمبر ٩٧٣ بإحدى ضواحي خوارزم ، وعاش فى عصر مضطرب بالقلق السياسى ، وتقاذفته الدساس والمؤامرات ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يلم بعلوم عصره ، فهو أديب ومؤرخ وعالم بالصيدلة ، ورياضى وفلكى ، فهو يعتبر مثالا للمثقف الموسوعى فى ذلك الحين .

ويعتبر كتابا الآثار الباقية وتاريخ الهند من أهم الآثار العلمية للبيرونى التى خلدت

اسمه . وقد ظل وصف البحار في كتابه مدة طويلة أحسن وصف لبحار العالم القديم . وإن الجغرافيين المحدثين لينظرون بعين الاحترام والاعتبار إلى آرائه حول دوران الأرض حول محورها ، وخضوع منابع الأنهار لقواعد الهيدروستاتيكا ، ونظريته في سهول السند والجانبية بأنها كانت مغطاة بماء البحر ثم تكونت بالإرسابات النهرية ، أو رأيه في جبال الهملايا الجيرية ، بأنها تكونت في قاع البحر ثم خضعت لقوى أرضية رفعتها ، إن بعض هذه الآراء لتعتبر ثورة في الفكر إذا قيلت بعد ذلك بعدة قرون ، فما بالناس وقد قالها صاحبها منذ أكثر من ألف عام .

أما كتاب الآثار الباقية من القرون الخالية الذي انتهى من تصنيفه وهو في سن السابعة والعشرين فهو خاص بالتقاويم المختلفة فلكية كانت أو شعبية ، عند كل الشعوب وفي الأديان المختلفة .. تقاويم أعياد اليونان والرومان والفرس والصغد والخوارزميين والحرانيين والنصارى والقبط واليهود وعرب الجاهلية والمسلمين .

وأما كتابه « القانون المسعودى في الهيئة والنجوم » . وهو يسير على نهج المجسطى لبطلميوس ، فيقدم فيه اثني عشر بابا موجزا لعلم الفلك مع حساب التوقيت وحساب المثلثات والرياضة والجغرافيا والتنجيم .

وكتابه تحديد نهاية الأماكن لتصبح مسافات الأماكن « يبين مقدار علمه بالجغرافيا الرياضية إذ يدور البحث فيه في تحديد العروض الجغرافية والاختلاف في تحديد أطوال المواضع .. وقد فطن إلى مذاهب الجغرافيين المسلمين في هذا المقام ، واستفاد منها جميعا ، فجمع إلى معرفته بحسابات بطلميوس أرصاده الخاصة ، وأطوال المسافات كما يحددها سير البريد .

أما أشهر كتبه على الإطلاق فهو كتاب « تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ويعد هذا الكتاب وثيقة جغرافية تاريخية هامة لأحوال شبه القارة الهندية في ذلك الحين . ولا تزال ملاحظاته عن الطوائف الهندية ، والعبادات الهندية وعادات أهلها صادقة حتى الآن .

واستمر تقليد الرحلات الجغرافية قائما في هذا القرن . وظفرت الجغرافية الإسلامية بأحد الأسفار القيمة الفلكية المكتوبة بغير اللغة العربية ، وهو سفر نامة لناصرى خسرو (٣٩٤ هـ - ٤٨١ هـ = ١٠٠٣ - ١٠٨٨ م) . وقد نشأ ناصرى خسرو في مدينة مرد ،

وخرج من بلاده يريد الحج فمر بنيسابور في طريقه إلى الرى . ثم قزوين وتفليس وأمد (ديار بكر) إلى حلب فطرابلس .

وتجول في بلاد الشام مدنها ومرافئها وزار بيت المقدس ، ثم عرج على مصر وقضى بها عدة أعوام ، ومنها أدى فريضة الحج ثلاث مرات . وقد أطنب في وصف مصر وخطط مدينة القاهرة في العهد الفاطمى . وبعد حجته الرابعة اجتاز الجزيرة العربية إلى الخليج فالبصرة وآب راجعا إلى بلاده . وهذه الرحلة ترجمة جيدة للعربية للأستاذ الدكتور يحيى الخشاب (١٩٤٥) .

ويرتبط بالعهد السلجوقى مؤلف وحيد باللغة العربية عن الأتراك ، هو « ديوان لغات الترك » لمحمود الكاشغرى ، وقد تم تدوينه في بغداد بين عامى ٤٦٤ و ٤٦٦ هـ = ١٠٧٢ و ١٠٧٤ م) . ومؤلفه تركى يجيد العربية ، اعتمد على معلوماته الشخصية باللغة التركية وبلاد آسيا الصغرى ، وترك لنا مادة وفيرة عن الشعب التركى في مراحل تكونه الأولى ، وقد تم طبع هذا الكتاب أثناء الحرب العالمية الأولى .

ومن هذا القبيل أيضا كتاب شرف الزمان طاهر الدوزى الذى كان طبيبا ببلاط السلاجقة واسمه طبائع الحيوان . ويبحث الكتاب في جوهره في علم الحيوان ، ولكنه تضمن الحديث عن الأجناس البشرية والجغرافيا .

وتأتى قيمة هذا الكتاب أيضا فيما تضمنه من حديث عن الشرق الأقصى ، الهند والتبت والصين .

وفي نفس العصر ظهر في الأندلس والمغرب أعلام ثلاثة هم البكرى والإدريسى وابن جبير . أما البكرى فهو أبو عبيد الله البكرى أكبر جغرافى أخرجه الأندلس قاطبة كما قال المستشرق دوزى ، كان أدبيا ولى المناصب الإدارية والدبلوماسية فى الدولة . ويرتفع نسبه إلى بكر بن وائل ، نشأ فى قرطبة فى أسرة عرفت الإمارة على بعض مدن الأندلس . وقد ترك لنا مصنفين هامين فى الجغرافيا ، أحدهما احتفظ بالاسم الكلاسيكى المتداول فى الجغرافيا الإسلامية وهو « المسالك والممالك » والآخر يضرب فى التقليد إلى كتب المعاجم ، ويعرف بمعجم ما استعجم .

ولم ينته إلينا كتاب المسالك والممالك كاملا ، بل بقيت منه شذرات فقد أفاد منه ياقوت كثيرا . ولكن مما تبقى منه نستطيع أن نقول : إنه أعطى وصفا تفصيليا لشمال إفريقيا ، طرقها وسواحلها ومرافئها ، كما أنه عُنيَ بمصر والعراق . وأفاد البكرى أيضا من كتابة معاصريه عن الأندلس ، وجزر كناريا وصقلية ، وقد فرغ من هذا الكتاب عام ٤٦٠ هـ - ١٠٦٨ م^(٢)

وأما الصنف الثانى فهو معجم ما استعجم وهو يضرب كما قلنا إلى المعاجم اللغوية وقد نشره الأستاذ مصطفى السقا بالقاهرة فى أربعة أجزاء (١٩٤٥ - ١٩٥١ م) . والمعجم مرتب على حروف الهجاء ، ويقول البكرى فى مقدمة كتابه « هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه إن شاء الله جملة ما ورد فى الحديث والأخبار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محدودة مبوبة على حروف المعجم مقيدة . فإنى لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس أردت أن أفصح عنه بأن أذكر كل موضع مُبين البناء معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس ولا تحريف ... وما أكثر المؤتلف والمختلف فى أسماء هذه المواضع مثل ناعجة وباعجة ، وبتل وبتل ونخلة ونحلة وساية وشاية الخ » .

فالمعجم إذن ليس كتابا جغرافيا بقدر ما هو كتاب لغوى . ويهتم البكرى فيه بشبه جزيرة العرب بصفة خاصة ، إذ استغرق الأسماء الواردة فى القرآن الكريم والسنة الشريفة والشعر القديم وقصص المغازى الأولى ، ولذلك فصل فى المقدمة فى ذكر أقسام شبه الجزيرة العربية وقبائل العرب وهجراتها .

أما الإدريسى فهو أكثر الجغرافيين المسلمين شهرة بين العلماء المحدثين ، اقترن اسمه بخريطته التى تقارن بخريطة بطليموس فى الجغرافيا الإغريقية . وينتمى أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس إلى الأدارسة العلويين ولهذا سُمى بالشريف الإدريسى . وربما كان قد ولد عام ٤٩٣ هـ = ١١٠٠ م ونشأ الإدريسى وعمل فى وسط غريب ، نصف عربى ونصف نورماندى ، هو بلاط روجر الثانى حاكم صقلية النورماندى ، ويمجد الإدريسى هذا الملك النورماندى ، ويذكر كيف أراد أن يتعرف على أحوال الدنيا ، وكيف جمع المراجع والكتب ، واستقدم العلماء والباحثين ، وأفردهم مكانا خاصا فى بلاطه ، وتركهم يعملون زهاء خمسة عشر عاما ، وكيف أمر بصنع كرة من الفضة على شكل الكرة الأرضية ورسمها ، وكيف أتى بلوح الترسيم فرسمها على الورق ، وأخيرا كيف شرع الإدريسى نفسه فى وصف تلك الخريطة ، وتأليف كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق .

وقد فقدت الكرة الفضية ، ولكن بقيت لنا الخريطة ، كما بقيت عدة مخطوطات لكتابه ، مخطوطة باريس ومخطوطة أكسفورد ، ثم مخطوطات إستانبول ومخطوطة القاهرة . ثم مخطوطة لننجراد .

وقد جمع الإدريسى فى منهجه بين المنهج الفلكى والمنهج الإقليمى الوصفى . فقد بدأ

بوصف الكرة الأرضية ، فقال : إنها معلقة في الفضاء كالمح في البيضة ، ثم وصف البحار والخلجان ثم أتى بالأقاليم السبعة ، وهى النطاقات العرضية المعروفة عند بطليموس ، ولكنه قسم كل إقليم إلى عشرة أقسام طولية ، مبتدئا من الغرب إلى الشرق . ورسم لكل قسم خريطة ثم شرحها وفصل فيها القول . وبذلك ضم كتابه سبعين خريطة هى التى جمعها المجمع العلمى العراقى وأخرج منها خريطته المعروفة منذ عدة أعوام .

ويختلف الإدريسى عن الجغرافيين المسلمين الكلاسيكيين فى أنه لم يقتصر على دار الإسلام فهو قد ألف كتابه ، ورسم خرائطه فى بالرمو فى بلاط إفرنجى . ويحتوى كتابه على وصف مشوق لأوروبا الغربية (فرنسا وألمانيا واسكتلندا وإيرلندا وسواحل بحر الشمال) . كما عرف بلاد (فنلندا) وبولندا ووسط أوروبا . أما عن إيطاليا وصقلية فمعلوماته عنها شخصية مباشرة . وجاء أهم أقسام كتابه تلك التى أفروها لإفريقيا الشمالية وأسبانيا . أما عن أجزاء العالم الأخرى غير شمال إفريقيا وجنوب أوروبا ، فإن الإدريسى لم يكن فيها غير ناقل ومعتمد على من سبقوه .

هذا هو الإدريسى الكارتوجرافى العربى ، الجغرافى الموسوعى .
ومن أحياء النمط الأدبى القديم بكتب العجائب ، معاصر للإدريسى عاش فى الأندلس ، هو أبو حامد الغرناطى الذى ولد فى غرناطة عام ٤٧٣ هـ = ١٠٨٠ م . وقد قام الغرناطى بعدة رحلات إلى مصر وسردينيا وصقلية ، وبغداد وإيران وبحر قزوين ، وعبر إلى مصب نهر الفلجا . وقد ضمن مؤلفه « تحفة الألباب ونخبة الأعجاب » خلاصة قراءاته ومشاهداته . وهذا الكتاب منشور الآن مع ترجمة إلى الإسبانية فى مدريد (١٩٥٣ م) . وينقسم كتاب تحفة الألباب إلى أربعة أبواب ، الأول منها يعطى صفة الدنيا وسكانها من إنسها وجانها ، والثانى صفة عجائب البلدان وغرائب البنيان ، والثالث صفة البحار وعجائب حيواناتها وما يخرج منها من العنبر والقار ، وما فى جزائرها من النفط والنار . أما الرابع فيحوى صفات الحفائر والقبور وما تضمنت من العظام إلى يوم النشور .

ولهذا الكتاب طابع كوزموجرافى ، حشد فيه ألوانا من المعرفة وشتاتا من المعلومات ، مثل ثوران بركان اتنا ، ومشاكل القسطنطينية السياسية ، ووصف آثار مصر ودخل الهرم الأكبر ، وتحدث عن تجارة عظام الماموث بين سكان الفولجا الأدنى وخوارزم ، ويصف شعوب القوقاز ، وأحوال المسلمين الهنغارين .

ومن أدب الرحلات الذى لا يزال يلقى الاهتمام حتى الوقت الحاضر ، رحلة ابن جبير .
وصاحب هذه الرحلة محمد بن أحمد بن جبير الكتانى يرجع نسبه إلى أسرة عربية عريقة
موطنها بلنسية ، ولد عام ٥٤٠ هـ = ١١٣٥ م واشتغل كاتباً لحاكم غرناطة فترة ما . ولكنه
اكتسب شهرة واسعة من رحلته التى دونها . والتى وجد لها مخطوطة وحيدة فى لندن ، يرجع
تاريخها إلى عام ٥٧٨ هـ = ١٤٧٠ م .

وقتناز رحلة ابن جبير بوصفه الدقيق لأحوال مصر والشام وقت مقاومتها للصليبيين فى
عهد نور الدين وصلاح الدين الأيوبي ، وقد قصد الحج عن طريق النيل إلى الصعيد ثم عبر
الصحراء الشرقية إلى عيذاب . ثم عبر البحر الأحمر . ويصف ابن جبير ما شاهده فى
الإسكندرية وصعيد مصر . كما واصل رحلته إلى الكوفة وبغداد وسامرا والموصل فحلب ودمشق
ثم عكا فصقلية ، وعاد إلى غرناطة بعد غيبة عامين . وعاد ثانية إلى بيت المقدس وظل وقته
منتقلا بين مكة وبيت المقدس ومصر مشغلا بالتدريس والأدب إلى أن وافته المنية
بالإسكندرية عام ٦١٤ هـ = ١٢١٧ م .

وينتمى إلى هذا العصر ابن ممانى المصرى (توفى ٦٠٦ هـ = ١٢٠٩ م) . وهو ينتمى
إلى أسرة قبطية عريقة ، اعتنق الإسلام وشغل منصبا كبيرا فى الدولة فى عهد صلاح الدين
وخلفائه . وأهمية كتابه « قوانين الدواوين » أنه فصل نظام الأراضي بمصر ، وبين مساحتها
وخارجها . ولذلك فهو يعتبر وثيقة هامة فى تاريخ مصر الاقتصادى .

العصر المملوكى فى مصر والشام :

على إثر الغزو المغولى وتحطيم بغداد وتخريب مكتباتها ، انتقل مركز الإشعاع الفكرى
الإسلامى نحو الغرب ، نحو دمشق وحلب ثم استقر أخيرا فى القاهرة . وقد شهد القرنان
السابع والثامن الهجريان ظهور الموسوعات العربية الكبرى ، لاسيما فى مصر . وكان من قبيل
هذه الأعمال الموسوعية ما أقدم عليه ياقوت الحموى فى معجمه ، ويكفى أن نعرف أن المتن
المطبوع لهذا المعجم يضم ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعا وتسعين صفحة لندرك ضخامته . وهو
بحق جماع للجغرافيا فى صورها المختلفة ، فلكية ووصفية ولغوية ورحلات اشتملت على كل
ما فى التراث الجغرافى الإسلامى من حضارة وأنشولوجيا وسلالات بشرية وجغرافيا تاريخية
وشواهد أدبية . وهو من كتب التراث القليلة التى يستطيع القارىء الحديث أن يرجع إليها
ويقراها دون مشقة ، بل ويجد فيها مادة خصبة مفيدة .

واسم ياقوت يشير إلى أنه كان في الأصل عبدا رقيقا ، نسب لصاحبه التاجر الحموى الذى اشتراه صغيرا ، فهو من أصل رومى ولكنه نشأ في محيط عربى . وربما ولد عام ٥٧٥ هـ = ١١٧٩ م . وقد صحب ياقوت سيده في أسفاره العديدة إلى عُمان ، وخلال إحدى هذه الأسفار علم ياقوت بوفاة سيده واعتاقه له . واستمر ياقوت في رحلاته العديدة ، إلى العراق وخراسان وفلسطين ومصر ، وذلك في ظروف اضطراب هذه البلاد بغزوات المغول والدسائس السياسية .

وقد نبتت لديه فكرة المعجم عندما شهد مجلسا علميا اختلف فيه الحاضرون على تحقيق اسم أحد المواضع ، فعقد العزم على إخراج معجم جغرافى جامع يكون مرجعا عند الحاجة . وقد وضع مقدمة لهذا المعجم أشار فيها إلى أهمية الجغرافيا للعابد الورع ورجال الحكم والشرع ، ولعلماء اللغة والأدباء ثم أورد أسماء مراجعه من العلماء الذين سبقوه ، ثم حلل أجزاء كتابه وبين منهجه في التأليف .

وللكتاب خمسة أبواب تعتبر بمثابة مدخل للمعجم ، لخص فيها النظريات المختلفة من صورة الأرض ، ونظام تقسيم الأقاليم متبعا للنهج البطلمى ، أى النطاقات المناخية العرضية . ويورد ياقوت قائمة البروج الاثنى عشر ، والبلدان الواقعة تحت تأثيرها ، كما يعرض لطرق بيان اتجاه القبلة في مواضع الأرض المختلفة ، ثم يعرض للمصطلحات التى يستخدمها فى كتابه . ومنها المصطلحات الجغرافية الفلكية كخطوط الطول ودوائر العرض والدرجة والدقيقة . ثم المصطلحات الاقتصادية كالخراج وغلة الأرض والصلح والعنوة والفيء والغنيمة والصدقة والخمس والقطيعة . ثم ينتهى بتوزيع الممالك حسب مكانتها وعراقتها عنده ..

وترد بعد ذلك أسماء المواضع حسب الترتيب الأبجدي ، فيتحدث عن الموضع ويستشهد بما ورد بشأنه من الشعر أو يفسر اسمه تفسيراً لغويا عربيا ، ثم يلى ذلك بيان طول وعرض المكان مع تحديد البرج الذى يقع تحته والقسم التاريخى الخاص بالموضع له مكانة خاصة عنده ، فإذا كان الموضع مما فتحه المسلمون فإنه يعرض لتاريخ هذا الفتح ، وإذا كان الموضع قد ذكر في القرآن أو الحديث ساق الشواهد على ذلك . وليس من النادر أن يعطى وصفاً دقيقاً للأماكن والمدن ، ويصف أخلاق أهلها وعاداتهم أو يذكر أسماء علمائها الأعلام . وهكذا تصبح كل مادة في معجمه مقالا كاملاً قد يمتد إلى عشر أو خمس عشرة صفحة .

ولم يقتصر ياقوت في معجمه على العالم الإسلامي كما فعلت الجغرافيا الإسلامية الكلاسيكية ، كما أنه لم يفرد لشبه الجزيرة العربية مكاناً خاصاً في معجمه ، كما فعل أصحاب المعاجم اللغوية . فجاءت مادته متنوعة شاملة . فلقد كان ياقوت أدبياً واسع الأفق ، و كاتباً جم النشاط ، لا يقارن بعالم كالبيروني أو رحالة كالمسعودي . ولكن معجمه سيظل مرجعاً موثقاً به جم الفائدة .

وعاصر ياقوت مؤلف آخر ترك لنا أثراً هاماً عن مصر . هذا المؤلف هو موفق الدين عبد اللطيف بن يونس البغدادي ، ولد ببغداد عام ٥٥٧ هـ = ١١٦٢ م ، ودرس الطب والأدب والكيمياء ، وكان عالماً دقيق الملاحظة . ومن آثاره التي تعنينا كجغرافيين كتاب صغير الحجم يحمل عنوان « كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر » . وينقسم الكتاب إلى مقالتين ، تنقسم كل منهما إلى بضعة فصول ، ويقدم الفصل الأول من المقالة الأولى ملاحظات عامة عن مصر ، طبيعتها وسكانها ، والثاني والثالث يصنفان نباتها وحيوانها ، أما الفصل الرابع فيخصصه البغدادي لآثار مصر القديمة ، وهذا أمر نادر جداً بين المؤلفين العرب . بل إن البغدادي كان إنساناً متحضرًا إذ اعترض على التخریب الوحشي الذي تعرضت له الآثار . أما في المقالة الثانية فقد خصص فيها فصلاً عن النيل كما سجل في فصلين منها حوادث مصر المريعة عامي ٥٩٧ - ٥٨٩ هـ = ١٢٠٠ - ١٢٠٢ م . عندما اجتاحتها المجاعة .

أصبحت مصر منذ ذلك العصر مستقر الأدياء والعلماء . وامتازت بسعة الإنتاج الأدبي في محيط الجغرافيا ، التي اتخذت طابع العصر ، وهو الطابع الموسوعي . كما ظهر طابع الخطط ، وهو طراز فريد من الجغرافيا التاريخية . هذا إلى المؤلفات المتعلقة بمسح الأراضي ، وهو عمل يتسم بأهمية خاصة ، في قطر صغير المساحة يعتمد اعتماداً تاماً على مياه نهر واحد ، وهذه المؤلفات تعرف باسم الروكات (جمع روك) وأبعتها صيتا الروك الناصري الذي يرجع تاريخه إلى عام ٧١٥ هـ = ١٣١٥ م .

أما عن محيط الجغرافيا بالمعنى الكوزموجرافي فقد حفظه لنا في ذلك العصر الأديب والإداري والمحارب أبو الفداء ، وقد ولد أبو الفداء عام ٦٦٢ هـ = ١٢٧٣ م بمدينة دمشق ، واشترك في عدة حملات ضد الصليبيين ، وارتبط نهائياً بالأيوبيين بمصر . وعين حاكماً من قبلهم في حماة . ويحمل مؤلف أبي الفداء في الجغرافيا اسم تقويم البلدان . وربما انتهى من مسودته

عام ٧٢١ هـ = ١٣٢١ م . وهذا المؤلف لا يزيد عن تصنيف المعرفة الجغرافية حتى ذلك الحين ، اعتمد فيه صاحبه على الإصطخرى وابن حوقل والإدريسى وياقوت .

وأكبر موسوعات عصر المماليك هما موسوعتا النويرى والعمرى ويعتبر شهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب البكرى النويرى (٦٧٧ - ٧٣٢ هـ = ١٢٧٩ - ١٣٣٢ م) مثالا لوسط كتاب الدواوين الذين يحتاجون لفنون من المعرفة تعينهم على تفهم أمور الدولة ، وتصلح مواهبهم ، وتشحذ أذهانهم وتكثفهم من امتلاك ملكة الذوق السليم والحكم السديد . ومن ثم كانت تربيته الموسوعية ، ومن أجلهم ألف القلقشندى مثلاً كتاب صبح الأعشى . وموسوعة « نهاية الأرب في فنون الأدب » للنويرى تدخل في هذا الباب وتمثله أدق تمثيل . وقد استغرق تأليف هذه الموسوعة عشرين عاماً . وقد ظل يضيف إليه إلى ما قبل عام واحد من وفاته (٧٣١ هـ = ١٣٣١ م) .

وتشغل الجغرافيا القسمين الرابع والخامس من الفن الأول المخصص للسماء والأرض ، وفيه نجد المعلومات المعروفة عن خلق العالم والظواهر الجوية والعناصر وقياس الوقت والفصول ، وكذلك عن الأرض وأبعادها والأقاليم السبعة والجبال والبحار والجزر والأنهار والبحيرات والبلدان المختلفة والمدن وسكانها وآثار المنازل والمحال .

وقد استطاع العلامة المصرى أحمد زكى باشا (توفى ١٩٣٤ م) أن يجمع نسخة كاملة من هذا الكتاب فى واحد وثلاثين جزءاً . وبدأت دار الكتب المصرية إصدار الطبعة الرابعة منه عام ١٩٢٣ .

وإذا كان القلقشندى يختتم عصره بعينه فى كتابة الجغرافيا العامة ، فإن ابن بطوطة يختتم بحق عصر الرحلات الجغرافية الكبرى .

وابن بطوطة هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتى الطنجى ، أصله من قبائل لواتة البربرية التى انتشرت بطونها على طول ساحل شمال إفريقيا حتى مصر . ويبدو أن الحافز لابن بطوطة فى رحلته كان أداء فريضة الحج ، وهذا ما حفز سابقه أيضاً .

ويروى ذلك بقوله : « قال الشيخ أبو عبد الله : كان خروجى من طنجة مسقط رأسى فى يوم الخميس الثانى من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعائة معتمداً حج بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام منفرداً عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون فى جلته ، لباعث من النفس شديد العزائم وشوق إلى تلك المعاهد الشريفة كان فى

الحيازيم فحزمت أمرى على هجر الإناث من الأحباب والذكور ، وفارقت وطنى مفارقة الطيور للوكور وكان والدائى بقاء الحياة فتحملت لبعدها وصبا ولقيت كما لقا نصبا ، وسنى يومئذ ثنتان وعشرون سنة .

والواقع ان ابن بطوطة لم يقيم برحلة واحدة ، بل بعدة رحلات ، حج فيها ثلاث مرات ، وقطع فيها معظم العالم المعروف فى عصره ، وعلى الرغم من أنه لم يكن جغرافيا ولا أدبيا ، إلا أن حب الرحلة كان يسرى فيه مسرى الدم فى العروق ، فهو لا يتردد عن اجتياز الفيافي والقفار ويرمى بنفسه وسط بيئات غريبة عليه تماما ، فبينما هو بين البجاة وفى ميناء عيذاب ، إذا به يصوب نحو الشمال ويحجب بلاد فلسطين والشام ، وبينما هو فى مكة المكرمة إذا به يضرب وسط شبه الجزيرة العربية إلى اليمامة ، ثم إلى البحرين ولقد جاب ابن بطوطة بلاد آسيا الصغرى وشبه جزيرة القرم وبلاد الفولجا وعاش فى ديار الأبكخانات . وشرق إلى الهند وسافر إلى الصين بحرا ، وإذا به يعود مرة أخرى ويقطع المحيط الهندى إلى ظفار ، وينتهى إلى بلاد المغرب ، ولا يكاد يعرف بوفاة والدته فى تونس حتى يرتحل إلى غرناطة آخر الممالك الإسلامية فى الأندلس ويكلفه ابن مرين بالسفر إلى بلاد الزنج فى غرة المحرم من عام ٧٥٣ = ١٣٥٢ فىصل إلى بلاد الطوارق ويحكى عنهم أغرب القصص (من وجهة نظره) ، ثم يضرب فى الصحراء حتى يصل إلى تمبكتو ويخترق هضبة الهجار فى ظروف قاسية ، حتى يعود إلى فاس فى نهاية عام ٧٥٤ هـ = ١٣٥٣ ، ويظل بها أكثر من عشرين عاما حتى وافته المنية فى عام ٧٧٩ هـ = ١٣٧٧ .

هذه الرحلات التى استغرقت منه ما يقرب من ثلاثين عاما تضع ابن بطوطة ذلك الشخص البسيط ، فى عداد كبار الرحالة والمستكشفين فى العالم على مدى القرون جميعا . ويكفى وصفه لأحوال دولة الأبكخانات ، أو وصفه لإفريقيا جنوبى الصحراء الكبرى .

وقد قيض الله لابن بطوطة كاتباً أدبياً هو الذى حرر له الرحلة ، أو بمعنى آخر أخرج رحلة ابن بطوطة فى إطارها الأدبى الذى نعرفه . هذا المحرر الأديب هو ابن جُزَى ، وهو من مواليد غرناطة ، شغل منصب الكاتب لدى السلطان أبى الحجاج يوسف من بنى نصر (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ = ١٣٣٣ - ١٣٤٥ م) وقد أتم ابن جُزَى « تقييد » الرحلة فى ثلاثة أشهر ، وانتهى من تحفة النظر فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار عام (٧٥٦ هـ = ١٣٥٥) .

وخير ما انتهت إليه الكتابات الجغرافية النظرية هو مقدمة ابن خلدون الشهيرة ، التي تعتبر أول بحث منظم في علم الاجتماع وفلسفة التاريخ ، ونستطيع بشئ من التجاوز ، أن نعتبرها أول بحث منظم في الجغرافيا الاجتماعية أيضا . وقد تحدث ابن خلدون في الفصل الأول من المقدمة عن (العمران البشرى على الجملة) وفيه مقدمات ، منها المقدمة الثانية « في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من الأشجار والأنهار والأقاليم » ثم تكملة لهذه المقدمة الثانية « في أن الربع السهلى من الأرض أكثر عمراناً من الربع الجنوبى » ، ثم فصل الكلام عن هذه الجغرافيا . وقد كان في تقسيمه للأرض إلى أقاليم طبيعية طبقا للمناخ ، مكررا في ذلك ما وصل إلى العرب من جغرافية الإغريق وأقسامهم الإقليمية .

ولكنه انتقل بعد ذلك إلى الحديث عن أثر المناخ في طبائع الشعوب ، ففى « المقدمة الثالثة فى المعتدل من الأقاليم والمنحرف وتأثير الهواء فى ألوان البشر والكثير من أحوالهم » يقول عن أثر المناخ فى الصفات الانثروبولوجية :

« وفى القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرها فى الهواء .. فأهل الإقليم الأول والثانى شملهم هذا اللون من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب . فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين فى كل سنة ، قريبة إحداها من الأخرى ، فتطول المسامتة عامة الفصول ، فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيط الشديد عليهم وتسود جلودهم لإفراط الحر . ونظير هذين الإقليمين بما يقابلهما من الشمال الإقليم السابع والسادس شمل سكانها أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط فى الشمال ، إذ الشمس لاتزال بأفقهم فى دائرة مرأى العين أو ما يقرب منها ، ولا ترتفع إلى المسامتة ، ولا ما قرب منها ، فيضعف الحرف فيها ويشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها وتنتهى إلى الزعورة ، ويتبع ذلك ما يقضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعر .

والمقدمة الرابعة فى « أثر الهواء فى أخلاق البشر » يقول فيها : « وقد رأينا من خلق السودان على العموم الخفة والطيش ، وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع ، متصفين بالحمق فى كل قطر ... ولما كان السودان ساكنيه فى الإقليم ، واستولى الحر على أمزجتهم وأصل تكوينهم كان فى أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم ، فتكون أرواحهم .. أشد حرا ، فتكون أكثر تفشيا ، فتكون أسرع فرحا وسرورا ، وأكثر انبساطا ،

ويجىء الطيش على أثر هذه وكذلك يلحق بهم قليلا أهل بلاد البحرية ... توابع الحرارة في
الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد التلول والجبال الباردة .. »

وأسهب في مقدمته في الحديث عن البدو والبدوقة ، وعلاقة ذلك بالحضر ، وذكر أن « البدو
أقدم من الحضر وسابق عليه ، وأن البادية أصل العمران ، والأقطار مدد لها » وقد تحدث عن
شرح مقومات المدنية ، وأثر البدو في هدمها أو مدحها بدم جديد ، وأفرد بعض مقدمته للحديث
عن الدولة ، وضرورة اعتمادها على العصبية أى أنه لمس مشكلة العنصر أو السلالة ، كما
نفهمها في الوقت الحاضر ، وأثر العنصرية في تكوين الدول والممالك ، كما تحدث عن عوامل
نشأة الدول وانهارها ، وهو يذكرنا في هذا الصدد بما يكتبه المؤرخ الفيلسوف المعاصر الأستاذ
توينبى في دراسة التاريخ .

ومن الطريف أنه طرق موضوع نشأة المدن والأمصار ، وما يجب مراعاته في أوضاع المدن
وما يحدث إذا غفل عن تلك المراعاة ، أى ضرورة حمايتها بالأسوار ، وتوخى المواقع الطبيعية
لذلك . وضرورة بعدها عن المستنقعات أو المياه الراكدة الفاسدة ، وما يراعى في البلدان
الساحلية التى على البحر ، وهذه الفصول التى تحدث فيها عن البلدان والأمصار شيقة ، لا
تبعد في إشارتها عن الآراء الحديثة في جغرافية المدن .

وليس من شك أن هذه المقدمة علم فرد في التفكير الاجتماعى والسياسى في العصور
الوسطى ، تدل على ما اتصف به صاحبها من سعة أفق ، ودقة ملاحظة وحسن استفادة من
معلوماته التاريخية ، وبصيرة بالأمور الاجتماعية والسياسية .

هذه هى مقدمة ابن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، الذى ينتمى إلى فرع
من كندة كان يقيم قبل الإسلام بحضر موت ، والذى دخل أجداده الأندلس بعد فتحها .
وقد ارتحل ابن خلدون إلى الشرق ، واشتغل بالقضاء في مصر . وقد ألف ابن خلدون كتاب
تاريخ ضخم ، في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، انتهى من
آخر مسوداته عام ٨٠٧ هـ = ١٤٠٤ م . والجزء الأول من هذا الكتاب يمثل المقدمة .

إن القيمة الحقيقية للتراث ، من وجهة نظر الجغرافية المعاصرة أنه أصل فكرة الإقليم ،
فقد سارت هذه الفكرة في عدة أطوار بدأت كما رأينا بالإقليم بالمفهوم الإغريقى ، وقد استوفى
الجغرافيون المسلمون هذا المفهوم ووضعوا قواعده ، فهى نطاقات مناخية ، تعتمد أساسا على
دوائر العرض .

وظلت هذه الفكرة تظهر وتختفى في الفكر الجغرافي الحديث ، ظهرت على الأساس المناخي القديم وطبقت على يد هيربرتسون الجغرافي البريطاني في العشرينات من هذا القرن . وظل المرحوم الأستاذ الدكتور عبد المنعم الشرقاوى في جامعة القاهرة مخلصا لها في محاضراته عن الجغرافيا الإقليمية .

ثم تمرد عليها الجغرافيون وأخذوا بفكرة القارة كوحدة إقليمية كبرى ، وعلى الرغم من صدور عدد كبير من الدراسات على هذا الأساس القارى ، فإن الجغرافى لا يأخذ في اعتباره ظاهرة طبيعية واحدة ، هى ظاهرة توزيع اليابس والماء ليقسم العالم إلى أقاليم كبرى ، ومن ثم فإن كثيراً من الكتب الإقليمية تضيف عاملاً آخر ، وهو العالم الثقافى فجاءت كتب باسم آسيا الموسمية أو إفريقيا المدارية ، أو أمريكا اللاتينية .

وسارت الجغرافيا الإقليمية خطوة أخرى نحو تقسيم الأقاليم الكبرى ، إذ عادت فأدخلت مجموعة من الأقطار تشترك في عامل أو أكثر تحت إسم واحد ، مثل الدول الاسكندنافية أو وسط أوروبا ، أو البحر الكاريبى . كما اعتمدت دراسات إقليمية أخرى على التقسيم السياسى ، رغم ما في ذلك من قصور ، إلا أن هذه الدراسات أدخلت عاملاً حاسماً في الجغرافيا الإقليمية وهو الوحدة السياسية ، التى تجعل اقتصادها متكاملاً داخل حدود سياسية واحدة .

وتعود الجغرافيا الإقليمية في الوقت الحاضر إلى فكرة الإقليم التى بدأها الإغريق واعتمد عليها المسلمون ، وتسمى هذه الأقاليم الآن ، بالجغرافيا النطاقية . وليست النطاقات سوى نطاقات مناخية ، أساسها دوائر العرض ، وهى نفس الفكرة القديمة . ومن ثم فقراءتنا لكتب الجغرافيا الإسلامية في الوقت الحاضر إنما هى قراءة إقليمية تحت ضوء جديد .

وإذا كان تقدم العلوم قد فصل الفلك عن الجغرافيا ، وأصبح الفلك علماً ، بل مجموعة علوم قائمة بذاتها ، إلا أن الجغرافيا لاتزال حتى الآن تستفيد من المعلومات الفلكية التى توضح مركز الأرض في الكون ، وعلاقة كوكب الأرض بالشمس ، وزوايا سقوط أشعة الشمس على دوائر العرض المختلفة إلى آخره . وإذا بحثنا جانباً فكرة المسلمين الخاطئة وهى الأفكار التى سادت الفكر العالمى حتى القرن الخامس عشر ، والتى تقول بدوران الشمس حول الأرض ، فإن المعطيات الفلكية الإسلامية المرتبة على شكل زيجات لاتزال صحيحة ،

وتقديرهم لجرم الأرض لا يزال صحيحاً ، ورصدهم لحركات الكسوف والخسوف ذات فائدة كبرى فى حساب الدورات الفلكية الكبرى وينبغى الاهتمام بها ودراستها .
ومن عرضنا العام لجهود المسلمين فى الجغرافيا ، ومن قراءتنا لأهم كتب التراث الإسلامى ، فإننا نرى أن وصف الأقاليم وجغرافيات المسالك والممالك لا تزال ذات فائدة كبيرة بالنسبة للجغرافيا التاريخية للأقطار موضع الدراسة فى التاريخ الذى كتبت فيها . وقد استعان الكاتب بهذا التراث الإسلامى فى التعرف على الجغرافيا التاريخية لفلسطين فى العصور التى تسمى بالعصور الوسطى . ولولا هذا التراث . لاندثرت تماما هذه الجغرافيا فى هذه الحقبة من الزمن . إذ أن الكتابات الأخرى المعاصرة ، مما تركه الأوروبيون ملئ بالأخطاء ومحشو بالأساطير .

وإذا علمنا أن هذه الفترة التى كانت فترة استقرار وازدهار حضارى رائع فى العالم الإسلامى ، فإنها كانت فى نفس الوقت فترة اضطراب وتدهور فى غير العالم الإسلامى ، وإذا أدركنا أن هذه الفترة شهدت حركة انبعاث الشعوب الجرمانية والصقلية والتركية من وسط آسيا غربا إلى أوروبا ، كما شهدت حركة هجرات الشعوب السودانية والزنجية من نطاق السافانا السودانية ، وإذا أدركنا أن هذه الهجرات البشرية الكبرى عند استقرارها هى التى أدت إلى استيطان الشعوب الأوروبية من ناحية ، والسودانية من ناحية أخرى فى أوطانها الحالية ، فإننا نستطيع أن نقدر القيمة الجغرافية التاريخية الكبرى لتسجيل هذه الحركات ، كما وردت فى كتب المؤلفين الجغرافيين والرحالة المسلمين . ويسجل الباحثون الغربيون اهتمامهم بهذا التراث الذى يؤرخ لفترة مظلمة فى تاريخهم ، ولكنها فى نفس الوقت فترة تكوين هذه الشعوب ، ولا تزال رحلات ابن فضلان وكتابات ياقوت والبكرى وغيرها هى المصادر الأولى لمعلوماتنا عن حركات الشعوب فى عصر تجوال الشعوب وتكوين الأوطان الأوروبية من ناحية والإفريقية من ناحية أخرى .

ونستطيع أن نقرر أن التراث الإسلامى مصدر أولى وأساسى موثوق به يتمتع بقدر كبير من التقدير والاحترام للجغرافيا التاريخية لأوروبا وإفريقيا فى أكثر فترات تاريخ هاتين القارتين حسبا ، فترات تكوين الشعوب واستيطان الأوطان .

وإذا انتقلنا من مرحلة الجغرافيا الوصفية إلى مرحلة التحليل والتعليل ، فإننا نجد أن كتب التراث الجغرافى الإسلامى مليئة بالنظريات التى تحاول أن تعلق النشاط البشرى وتربطه

بالبيئة ، وإذا ضربنا صفحا عن بعض النظريات التي كانت تعد في حينها مقديا فكريا رائعا ، مثل نظرية البيروني عن بناء جبال الهملايا ، أو عن الحفريات ، أو أفكار إخوان الصفا عن تسلسل الخلق ، إذا تجاوزنا هذه النظريات على اعتبار أن العلم الحديث قد خطا خطوات أكبر في علوم الأرض والبيولوجيا ، فإننا لا نستطيع أن نتجاهل آراء ابن خلدون في نشأة العمران وعلاقة البداوة بالاستقرار البشري ، أو نظرياته السكانية التي تربط تفاقم العمران بازدياد السكان ، وتربط انتشار النفوذ الثقافي للأمة بضخامة عدد سكانها ، أو نظرياته في اختيار مواقع المدن بحيث يتوافرها عامل الأمان في مواقع صحية بعيدة عن المستنقعات ، سهولة الاتصالات وما إلى ذلك مما يدرسه الجغرافيون في الوقت الحاضر . إذ لاتزال مقدمة ابن خلدون عظيمة الفائدة في جميع فروع الجغرافيا البشرية .

وبعد :

فهذا عرض سريع للجغرافيا الإسلامية ، رأينا فيها كيف دفع الإسلام على التعمق في مسائل الفلك ، لتحديد المواقع ، ومعرفة أوقات الشروق والغروب وتحديد موقع القبلة في كل مكان . وكيف أن الحج كان دافعا قويا للرحلة ، ومشجعا على ارتياد الآفاق ، وكيف أن امتداد رقعة الدولة الإسلامية ، وضرورة ربط أجزائها بعضها ببعض الآخر ، قد أدى إلى الاهتمام بالبريد ، وبالمسالك . ورأينا فيها كيف استفادت بالثقافات الهندية والفارسية والإغريقية ، وكيف أضافت إلى تراث هذه الثقافات بعد أن استوعبتها وتمثلتها . ورأينا كيف سارت - مثل كل الجغرافيات على مدى العصور - من الرحلة والكشف إلى الوصف والتحليل ، ومن الفلك إلى الكارتوجرافيا ، وكيف ارتبطت الجغرافيا بالخرائط في عصر ازدهارها . وأخيرا فإن الجغرافيا الإسلامية التي بدأت بالرحلات وانتهت بالخرائط ، قد خرجت من مجرد الوصف إلى التحليل ومن التحليل إلى التركيب ، فتوجت الجغرافيا الإسلامية - مثل الجغرافيات الإغريقية من قبل والجغرافيا الحديثة من بعد ، بالنظريات التي تربط عنصري الجغرافيا ، البيئة والمجتمع وزادت على ذلك بأنها ربطت الزمان بالمكان ، التاريخ بالجغرافيا .

فالجغرافيا الإسلامية بحق تحتل مكانها في تاريخ الفكر الجغرافي ، محافظة على تراث البشرية ، مسهمة فيه في سبيل اجتلاء عظمة الخالق فيما خلق . وصدق الله عز وجل إذ يقول « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ، ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير (سورة العنكبوت) الآية ٢٠ .

صدق الله العظيم

مراجع مختارة

- سارتون ، جورج ، تاريخ العلم ، ترجمة ليف من العلماء ..
القاهرة ١٩٥٧ .
- غلاب ، محمد السيد ، البيئة والمجتمع - الطبعة الخامسة - القاهرة ١٩٧٥ .
- مؤنس ، حسين ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس .
مطبعة معهد الدراسات الإسلامية - مدريد ١٩٦٧ .
- كراتشكوفسكى ، أغناطيوس ، تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الإدارة الثقافية فى جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٥٧ .



الحواشي

- (١) ترجم من العربية إلى اللاتينية عام ١٤٧٨ م . ومن اليونانية إلى العربية في عهد محمد الفاتح (١٤٥١ - ١٤٨١ م) نشرها بالقاهرة في طبعة مصورة الأمير يوسف كمال عام ١٩٢٩ .
- (٢) طبعت من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى الأجزاء التالية :
 - ١ - المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب تحقيق ديسلان ، الجزائر ١٨٥٧ م
 - ٢ - جغرافية الأندلس وأوروبا تحقيق عبد الرحمن الحجى - بيروت ١٩٦٨ م .
 - ٣ - جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك تحقيق د . عبد الله يوسف الغنيم ، الكويت ١٩٧٦ م
 - ٤ - جغرافية مصر تحقيق د . عبدالله يوسف الغنيم ، الكويت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م وهو البحث الذى قدمه إلى المؤتمر الجغرافى الإسلامى الأول الذى عقدته الجامعة فى الرياض ، وسينشر ضمن أبحاث المؤتمر

